This item is provided to support UOB courses.

Its content may not be copied or emailed to multiple sites or posted to a listserv without the copyright holder's express written permission.

However, users may print, download, or email it for individual use for learning and research purposes only.

هذه الوثيقة متوفرة لمساندة مقرارات الجامعة.

ويمنع منعا باتاَ نسخها في نسخ متعددة أو إرسالها بالبريد الالكتروني الى قائمة تعميم بدون الحصول على إذن مسبق من صاحب الحق القانوني للملكية الفكرية لكن يمكن للمستفيد أن يطبع أو يحفظ نسخة منها لاستخدام الشخصي لأغراض التعلم والبحث العلمي فقط.

السنة
بوصفها مصدراً للثقافة الإسلامية

تعريف السنة :

السنة في أصل اللغة تعني الطريق الذي سنه أوائل الناس فصار مسلكاً لمن بعدهم ، وتطلق على الطريقة والسيرة ، أو الطريقة المستقيمة المحمودة(١) وأما في اصطلاح علماء الحديث فالسنة تعني ما ثبت عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خَلْقِية أو خُلُقِية قبل البعثة أو بعدها(٢).

فالسنة هي ما ثبت عن النبي ﷺ وصح أن ننسبه إليه مما يعد حجة في الأحكام الشرعية وتشمل الحديث الصحيح والحسن ؛ أما ما لم يثبت من الأحاديث الضعيفة والواهية والموضوعة فليس من السنة في شيء ، ولا يصح أن ينسب إلى النبي ﷺ وليس بحجة في أحكام الشريعة .

أما عند الفقهاء فالسنة تعني ما ثبت عن النبي ﷺ من غير افتراض ولا وجوب .

السنة قد تطلق أيضاً على ما يقابل البدعة ، فيقال : فلان على سنة . إذا فعل ما يوافق السنة ، ويقال : فلان على بدعة . إذا فعل ما يخالف السنة(٣).

من تعريف السنة يتضح أن السنن قد تكون قولية أو فعلية أو تقريرية أو صفة للنبي ﷺ في بدنه وخلقته التي خلقه الله عليها أو في أخلاقه .

أما السنن القولية فهي أكثر أنواع السنن ، ومنها الأحاديث القدسية التي ينسبها النبي ﷺ إلى ربه عز وجل ، ومنها أحاديث جوامع الكلم ، وهي الأحاديث التي تجمع المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة ، وتبين الفصاحة والبلاغة النبوية ، ومنها أحاديث الأذكار

والأدعية ، وأحاديث البيان القولي ، وأحاديث تفسير القرآن الكريم ، والإجابات عن أسئلة الصحابة ، والردود على أهل الكتاب والمشركين والمنافقين وغيرها من أنواع السنن القولية.

السنة القولية تشتمل على الأحكام الشرعية الخمسة : وهي الواجب والمستحب والمباح والمكروه والمحرم .

وأما السنة الفعلية كأفعاله ﷺ في الصلاة من ركوع وسجود وقيام ، وأفعاله في الحج كالطواف والسعي والوقوف بعرفة ونحوها ، فهي للتأسي بها ، قال تعالى : (**لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر**) (الآية ٢١ من سورة الأحزاب).

السنة الفعلية لا تدل على الوجوب إلا إذا كانت تنفيذاً لحكم أو بياناً لأمر واجب ، وعليه فمن فعل مثل فعله (فيما ليس بواجب فهو محسن مأجور ومن لم يعمل فلا بأس عليه ، إلا أن يكون تركه للعمل رغبة عن هديه) .

وأما السنة التقريرية فهي أن يرى النبي ﷺ أحداً يقول قولاً ، أو يفعل فعلاً فيسكت ولا ينكر ذلك عليه ، وهي تفيد الإباحة في أمور المعاملات والعادات لأن النبي ﷺ لا يسكت على باطل(٥)، وتفيد الاستحباب في أمور العبادات لأن فعل العبادة المشروعة غير الواجبة مستحب ، ألا أنها ليست في درجة استحباب ما حافظ النبي ﷺ على فعله أو حث المسلمين عليه بقوله .

وأما الصفات الأخلاقية فهي إما أن تكون من الأقوال أو من الأفعال أو من التقريرات ويكون لها عند ذلك حكم الأقوال أو الأفعال أو التقريرات .

وأما ما وقع للنبي ﷺ قبل البعثة من الأمور الخارقة للعادة فهي من إرهاصات النبوة كحادثة شق الصدر ، وأما وقع له من أمور قدرية تشير إلى اصطفائه للنبوة كبعده عن الشرك ، وأمور الجاهلية وضع الحجر الأسود ، واتصافه بالصدق والأمانة وجميع مكارم الأخلاق فهي من دلائل النبوة .

السنة مصدر الثقافة الإسلامية

ثقافة الإنسان هي أسلوب حياته وتشمل العقائد والأفكار والمذاهب التي يؤمن بها وأنماط السلوك التي يمارسها ويتعامل بها مع غيره ، والسنة هي المصدر الثاني من مصادر ثقافة المسلم ، وتتجلى هذه المصدرية في شمول أحكامها لجوانب الحياة كلها ، وفي تفاصيلها الدقيقة للنموذج الأمثل لحياة المسلم ، وفي بيانها لكثير من أمور الغيب .

١ - شمول السنة لجوانب الحياة كلها :

شمول السنة لجوانب الحياة كلها يوضحه أن علماء الحديث لما جمعوا السنة من الأمصار الإسلامية كلها في نهايات القرن الثاني الهجري وما بعده سعوا في ترتيب الأحاديث على الموضوعات فجمعوا الأحاديث المتعلقة بالقرآن الكريم ونزوله ومعانيه في كتب التفسير وعلوم القرآن ، وجمعوا أحاديث العبادات والمعاملات وما يتعلق بحياة المسلم العملية في كتب سموها السنن ، وصنفوا كتباً سموها الجوامع وهي كتب جامعة تشتمل على أحاديث متعلقة بأبواب الدين الكبرى الثمانية ، وهي العقائد ، والأحكام العملية (الفقه) ، والآداب ، والزهد والرقاق ، والتفسير ، والسير والتاريخ ، والفتن وأشراط الساعة ، المناقب والمثالب(٦) ، ثم ألفوا كتباً خاصة كثيرة في كل باب من هذه الأبواب الثمانية على حدة .

٢ - تفصيل النموذج الأمثل للمسلم :

ما من أمر صغير ولا كبير إلا وتجد في السنة من الأقوال والأفعال والتقريرات النبوية ما يرشد المسلم إلى ما ينبغي عليه أن يفعله ، ومن هذه السنن ما يتعلق بالعبادات وكيفياتها ، ومنها ما يتعلق بحياة المسلم الخاصة وعاداته في أكله وشربه ولبسه ونومه ، ومنها ما يتعلق بالأخلاق وآداب التعامل مع الناس ، ومنها ما يتعلق بالحياة الزوجية والأسرة وتكوينها وكيفية معالجة مشاكلها وتوزيع الميراث عند موت أحد أفرادها ، ومنها ما يتعلق بالجوانب الاجتماعية والتكافل الاجتماعي ورعاية المحتاجين ، ومنها ما يتعلق بأمور المعاش والعمل والمهن والتجارة والأموال ، ومنها ما يتعلق بجوانب القضاء والحكم والسياسة والقيادة والإمارة والتعامل مع غير المسلمين في الحرب والسلم ، وقد كان النبي ﷺ حاكماً ربانياً للمسلمين في المدينة التي فيها مع المسلمين طوائف من اليهود والمنافقين ، وكان قائداً للمسلمين في الحرب وفي السلم والصلح مع قريش ومشركي العرب والروم ، ومشاوراً لهم في أمورهم ، وقاضياً بينهم فيما يقع بينهم من أمور القضاء ، وبالجملة فإن سيرة النبي ﷺ هي أوضح السير على الإطلاق ، وقد تهيأ لها من التدوين والحفظ ما لم يتهيأ لغيرها ، وفيها من التفاصيل الدقيقة لجميع جوانب الحياة ما لا تجده في سيرة أحد من العالمين ، وهذه السيرة الواضحة والسنة المستقيمة هي قدوة المسلم في جوانب حياته كلها .

٣ - بيان المغيبات :

في القرآن الكريم وفي السنة كثير من الأحاديث المتعلقة ببدء الخلق ونشأة الكون ونهاية الدنيا وقيام الساعة والعوالم غير المادية كالملائكة والآخرة وما فيها من نعيم مقيم للمؤمنين الطائعين وعذاب شديد للكافرين والعاصين ، وذلك كله من عوالم الغيب التي لا يعلمها إلا الله عز وجل ويخبر ببعضها أنبياءه ، ولم يبق من كتب الأنبياء وأخبارهم الصحيحة إلا القرآن الكريم والسنة وعليه فهما مصدر البشرية الوحيد لهذه المعلومات المهمة عن بدء الخلق ونهايته .

والوحي المتمثل في القرآن والسنة فيه بيان لكثير من الحقائق المتعلقة بخلق آدم وحواء ونزولهما من الجنة إلى الأرض وفيه بيان لبداية الأسرة البشرية والمجتمع البشري الأول، وقد تخبطت واختلفت آراء علماء الاجتماع الغربيين كثيراً في تفسير كيفية بداية الأسرة الإنسانية ، وكيفية تكون المجتمعات البشرية الأولى وفي تفسير الدوافع لتكوينها ، وكل ما أتوا به في ذلك ما هو إلا مجموعة من الآراء والظنون التي لا يدل عليها دليل ، بل إن تاريخ البشرية الحقيقي في صراعها بين الحق والباطل منذ عصورها الأولى ، وتاريخ الأنبياء وأخبارهم مع قومهم لم تأت ولن تأتي الحضارات المادية المعاصرة فيه بشيء ذي بال يريح عقل الإنسان وقلبه مهما بلغت من تقدم في علم التاريخ والآثار والحفريات ، لأن الأنبياء إنما يتركون الآثار الكبيرة في نفوس الناس وعقولهم ولا يتركون الآثار المادية كما يفعل

الطغاة الذين يحاولون تخليد ذكراهم بالمباني الكبيرة الضخمة التي تبقى لعصور طويلة وتنفق في تشييدها أموال طائلة وقد تزهق في سبيل ذلك كثير من النفوس البريئة .

وفي القرآن والسنة توسيع لمعرفة المسلم بالكون حوله وما فيه من عوالم غير مرئية كالجن والشياطين وكيفية الوقاية من شرورهم ، والعين والسحر وكيفية الوقاية منهما ومعالجتهما ، والرؤيا وكيفية تعبيرها وكيفية الوقاية من الرؤى المفزعة التي تقلق نوم الإنسان ، وفهم كثير من الظواهر غير المادية التي كانت تنكرها الحضارة المادية إلى عهد قريب لأنها لا تستطيع إخضاعها للدراسة في معاملها ومختبراتها ، إلا أنها اضطرت إلى الاعتراف بها على استحياء وصارت توليها بعض العناية في علم النفس ، ولن تأتي فيها بكبير شيء ما لم تستفد من وحي السماء في ذلك .

منزلة السنة في الشريعة :

يـ القرآن الكريم المصدر الأول للشريعة الإسلامية ، فهو كلام الله عز وجل ، وهو منقول كله بالتواتر كما نزل من رب العالمين ومتحدى بألفاظه ومتعبد بتلاوته ويقرأ به في الصلاة ولا يمسه إلا المطهرون ، وهو معجزة النبي ﷺ الباقية للناس إلى آخر الزمان ، والسنة ليست مثله في ذلك كله ، بل هي دونه ولذا تعد السنة عند العلماء المصدر الثاني للشريعة الإسلامية بعد القرآن الكريم ، ولا يعني ذلك أن نبحث عن حكم المسائل في القرآن الكريم أولاً فإن لم نجد فيه حكماً بحثنا عن الحكم في السنة كما قد يتبادر إلى أذهان بعض الناس ؛ بل الواجب عند البحث عن حكم المسائل أن نجمع كل ما ورد في المسألة من القرآن الكريم ومن السنة النبوية معاً في آن واحد ، ثم يوضع كل نص منها في موقعه المناسب له ، ولذا لا يجوز في الاستنباط من القرآن الكريم الاقتصار عليه دون النظر في السنة التي هي شرحه وبيانه حتى لا تهمل السنن التي جاءت لبيان الدين ، وحتى لا تعارض الأحكام بعضها ببعض ، وذلك لأن السنة حق كالقرآن الكريم ، وهي تشاركه في كونها وحي من الله عز وجل أوحى به إلى النبي ﷺ لبيان أحكام الدين للعباد ، ولذا فإنها عند علماء الحديث وعلماء أصول الفقه تعد منزلتها في بيان الأحكام كمنزلة القرآن الكريم(٧).

حجية السنة :

أنكر حجية السنة قوم مغرضون يريدون التلاعب بالقرآن الكريم نفسه لأن السنة تبينه وتوضح المراد منه فإذا ما أقصي البيان والتوضيح سهل التلاعب بآيات القرآن الكريم ، حيث يسهل عليهم عند ذلك إقصاء الآيات المجملة والنصوص المطلقة وحملها على غير مراد الله عز وجل منها ، وفي بيان السنة من الضوابط والتفاصيل ما يمنع تلاعب المتلاعبين بالقرآن الكريم(٨).

السنة حجة في أحكام الشريعة كلها بلا خلاف بين العلماء في ذلك ، وقد دل على حجيتها القرآن الكريم بأدلة كثيرة متنوعة وبأساليب متعددة منها الآتي(٩) :

١- أرسل الله الرسل ليطاعوا فقال : (**وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله**). (الآية ٦٤ من سورة النساء) .

٢- جعل الله السنة في مقام البيان لكتابه وشرعه فقال : (**وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم**). (الآية ٤٤ من سورة النحل). وقال : (**وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه**). (الآية ٦٤ من سورة النحل).

٣- جعل الله اتباع النبي ﷺ هو الدليل على محبة الله عز وجل فقال : (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم). (الآية ٣١ من سورة آل عمران).

٤- أمر الله المؤمنين بأخذ ما آتاهم الرسول (ونهاهم عما نهاهم عنه فقال : (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا). (الآية ٧ من سورة الحشر).

٥- لم يجعل الله للمؤمنين خياراً مع السنة وجعل مخالفتها ضلالاً مبيناً فقال : (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً). (الآية ٣٦ من سورة الأحزاب).

٦- أمر الله المؤمنين برد ما تنازعوا فيه من الأمور إلى القرآن والسنة وجعل ذلك شرطاً للإيمان فقال : (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه على الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً). (الآية ٥٩ من سورة النساء).

٧- جعل الله طاعة الله ورسوله شرطاً للإيمان فقال : (وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين). (الآية ١ من سورة الأنفال).

٨- جعل الله عدم الرضا بحكم الرسول من علامات النفاق فقال : (وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً). (الآية ٦١من سورة النساء).

ولهذا كله ولغيره من الآيات الكثيرة الدالة على حجية السنة وعظم مكانتها في بيان دين الله عز وجل فقد قرر العلماء أنه لا يجوز رد الحديث الثابت سنداً ومتناً(١٠).

علاقة السنة بالقرآن الكريم :

السنة من حيث الأحكام التي تشتمل عليها ومن حيث علاقة تلك الأحكام بما ورد في القرآن الكريم ثلاثة أنواع هي(١١) :

١- **أن تكون موافقة للقرآن الكريم من كل وجه** : وهذا من باب توارد الأدلة من القرآن والسنة على الحكم الواحد ، ولذا يطلق عليها بعض العلماء أنها سنة مؤكدة للقرآن الكريم ، ولا يقصد بذلك أنها تزيد نص القرآن قوة وثبوتاً لأن نص القرآن قوي بنفسه ولا يحتاج إلى تقوية لإثباته ، وإنما المراد التأكيد على الحكم الذي اشتمل عليه النص ، وهذا من باب تضافر الأدلة وتواردها على حكم واحد للدلالة على أهمية ذلك الحكم ، وعظم منزلته في الشريعة مقارنة مع أحكامها الأخرى .

٢- **أن تكون تفسيراً للقرآن الكريم وبياناً لما أريد منه** : لأن دلالة القرآن الكريم على الأحكام أكثرها كلية لا جزئية ، وكثير من أحكام الدين جاءت في القرآن الكريم مجملة كالصلاة والزكاة والصوم والحج وجاءت السنة بمقاديرها وشروطها وصفاتها وكيفية أدائها ، وهذا النوع من السنة هو الذي ينطبق عليه قوله تعالى : (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم). (الآية ٤٤ من سورة النحل). وهذا البيان قد يكون تفسيراً لكلمة غامضة في أذهانهم ، أو بياناً لعبارة أشكل عليهم فهمها أو فهموها على غير المراد منها فصححت السنة لهم المراد ، وقد يكون إجابة على بعض أسئلة الصحابة ، وقد يكون البيان بالفعل الذي قد يبلغ في البيان ما لا يبلغه القول في بعض كيفيات العبادات كأفعال الصلاة وأفعال الطهارات وأفعال الحج ، وقد يكون السكوت للدلالة على جواز ما فهموه أو قالوه أو فعلوه ، وعليه فما من أمر ورد في القرآن الكريم إلا وقد قام النبي ﷺ بتنفيذه على الوجه الأكمل ، وما من نهي فيه إلا وقد أجتنبه وحث الأمة على تركه وقد كان خلقه القرآن، كيف لا وهو أول العابدين وقدوة المؤمنين ، وعليه فالسنة هي التفسير والبيان والتطبيق العملي للقرآن الكريم .

٣- **أن تأتي السنة بحكم سكت عنه القرآن الكريم** : من ذلك صلاة الوتر وتحريم الجمع بين المرأة وعمتها وبين المرأة وخالتها والتحريم بالرضاع لكل ما يحرم من النسب من النساء وعدم توريث الكافر من المسلم والمسلم من الكافر ومنع الحائض من الصوم والصلاة ، وهذا النوع من الأحكام والسنن كثيرة تدخل كلها تحت عموم الآيات الآمرة بطاعة الرسول ﷺ والناهية عن معصيته والمحذرة من مخالفته .

وعليه فإن السنة كلها بيان للقرآن الكريم وترجع في معناها إليه ، ولا تجد فيها أمراً إلا وقد دل القرآن عليه دلالة كلية إجمالية أو دلالة جزئية تفصيلية(١٢).

السنة غير التشريعية :

الأصل في السنة أنها لبيان الأحكام التي شرعها الله عز وجل للناس على لسان رسوله ﷺ إلا أن بعض السنن النبوية ليست لبيان الأحكام للناس ، ومن هذه السنن التي ليست للتشريع الآتي :

١- **الخصائص النبوية** : وهي الأحكام الشرعية التي تخص النبي ﷺ دون سائر الأمة ، بل إن فعلها من الأمة يعد معصية لأن النبي ﷺ منعهم منها ، ومن ذلك زواجه ﷺ بأكثر من أربع نساء ومتابعة الصيام لثلاثة أيام متتالية ، والخصائص لا تثبت إلا بدليل واضح من القرآن الكريم أو من السنة النبوية الثابتة .

٢- **أفعال الجبلة** : وهي الأمور التي يحبها الإنسان أو تميل إليها نفسه ، أو تنفر منها بحكم الطبع من المآكل والمشارب ونحوها كتركه ﷺ أكل لحم الضب وهو مباح ، وترك المباح بحكم الجبلة لا حرج فيه ولا يدل على تحريم المتروك(١٣).

٣- الأمور التي فعلها النبي ﷺ بحكم البيئة والزمان الذي كان فيه مما قد يتغير بتغير الأزمنة والأمكنة كالقتال بالسيوف والرماح والسهام وكالركوب على الحمر والخيل والإبل،

ومثل هذه الأشياء قد تصلح لبعض الأزمنة دون بعض أو في بعض البلاد دون غيرها .

منهج العلماء في التمييز بين المرويات :

لعلماء الحديث منهج دقيق في الحكم على الرواية بالقبول أو الرد ، ولهم الكثير من القواعد العقلية لضبط الروايات والتمييز بين الرواة والترجيح بين الروايات إذا اختلفت فيقدمون رواية الأحفظ على الحافظ ، ويقدم الحافظ الذي يكتب على الحافظ الذي يعتمد على الذاكرة وحدها ولا يكتب أحاديثه لأن الذاكرة قد تخون أحياناً ، ويقدم الشيخ الذي يحفظ مع الاستعانة بالكتاب على الذي يعتمد على القراءة من الكتاب وحدها ، ويقدمون رواية التلميذ الذي لازم شيخه كثيراً على الذي لم يلازمه إلا فترة وجيزة لأن الملازم للعالم يعرف من أحواله أكثر مما يعرفه غيره ، ويقدمون رواية من سمع من الشيخ عدة مرات على الذي سمع منه مرة واحدة لأن احتمال الخطأ في السماع مرة واحدة أكثر منه في السماع المتعدد للنص نفسه ، ويقدمون روايات أهل بلد العالم وأحكامهم عنه على روايات وأحكام الغرباء عنها لأن أهل كل بلد أعرف بحديثهم ، ويقدمون رواية من سمع من الشيخ قديماً على من سمع منه حديثاً لأن الصحة إلى الرواية القديمة أقرب منها إلى الرواية الحديثة عند تعارضهما لاحتمال النسيان والخطأ مع طول الزمن ولاحتمال التغير في العقل مع كبر السن(١٤).

كتابة السنة وتدوينها :

مرت السنة في كتابتها وتدوينها بمراحل متعددة بينها العلماء(١٥)، وقد كتبت في العهد النبوي كثير من الأمور خاصة الرسمية منها ، والعهود مع القبائل مثل صلح الحديبية ، والرسائل إلى الملوك في خارج الجزيرة العربية مثل هرقل وكسرى ، والرسائل إلى العمال والأمراء الذين كان يبعثهم النبي ﷺ إلى مكة واليمن وغيرها ، ولا شك في أنه كانت تجري بعض المراسلات بينه وبينهم وأنهم كانوا يحتفظون بهذه الكتب لما فيها من السنن ، وقد حفظ بعضها أو بعض أحكامها مثل كتاب الإمام علي رضي الله عنه في العقل وفكاك الأسير وألا يقتل مسلم بكافر . وكتاب عمرو بن حزم الأنصاري رضي الله عنه في

الديات وغيرها ، وهناك كتب لوفود القبائل التي كانت ترد على المدينة وبعضهم كان يطلب أن يكتب له كتاب فيكتب له ، وقد كانت هناك كتابات خاصة مثل الصحيفة الصادقة التي كتبها عبد الله بن عمرو بن العاص في حياة النبي ﷺ .

توسع الناس في كتابة السنة بعد العصر النبوي خاصة وأن القرآن الكريم قد اكتمل وجمع في مصحف واحد وسهل حفظه ، وبعد إكمال حفظ القرآن الكريم فمن المعهود أن يتجه طلاب العلم في ذلك الزمان إلى السنة ، ولا يوجد من العلوم المدونة ما يشغل الناس عنها ، وكان صغار السن من الصحابة والتابعين يتنافسون في طلب العلم بالسنة من كبار الصحابة ، ثم إن توسع دولة الإسلام واحتياجها إلى الأعداد الكبيرة من العلماء والمفتين والقضاة والأمراء وعمال الزكاة وقادة الجيوش العالمين بالسنن في هذه الجوانب جعل من الضروري أن يعتني الناس بتعلم السنن وكتابتها وحفظها ، إذ أن تولي هذه المناصب كلها كان شرطه الأول هو العلم بالشرع المتمثل في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، وفي طلب العلم وحفظه وتبليغه تسلية وميدان للتنافس لمن فاته شرف الجهاد ونصرة الإسلام مع النبي ﷺ .

أما تدوين السنة وهو جمعها في ديوان وكتاب كبير فقد بدأ في عهد عمر بن عبد العزيز، وكان معروفاً بالعلم والعدل والورع ، وكان قد مات الصحابة واتسعت الدولة وخاف من ضياع السنة أو من تشويهها بانتشار الوضع فيها فأمر قاضيه بالمدينة وهو أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم بأن يكتب له أحاديث أهل المدينة ، وفيها أكثر السنة لأنها دار الهجرة وسكنها المهاجرون والأنصار وتلقى السنة منهم أبناؤهم ، ثم كلف رجلاً آخر وهو محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب الزهري ، وكان من أعلم الناس بالسنة وأحفظهم لها في عهده ، فجمعها له في ديوان كبير .

وعلى أيدي تلاميذ الزهري ظهرت المؤلفات الحديثية الأولى المرتبة على الموضوعات الفقهية مستفيدين من أحاديث الزهري ومن أحاديث شيوخهم من العلماء الآخرين .

الحذر من نسبة الأحاديث إلى النبي ﷺ :

تواتر عن النبي ﷺ أنه قال : (من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار)(١٦).

وصح عنه أنه قال : (إن كذباً علي ليس ككذب على أحد فمن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار)(١٧). لذا بذل علماء الحديث جهوداً كبيرة في تنقيتها من الدخيل ، وبدأت العناية بالإسناد وتحري الرواية عن الثقات منذ النصف الثاني من القرن الهجري الأول ، وقد كانوا يعدون الإسناد من الدين ، وقد جاء عن ابن عباس أنه قال : (**إنا كنا نحدث عن رسول الله (إذ لم يكن يكذب عليه ، فلما ركب الناس الصعب والذلول تركنا الحديث عنه**)(١٨). وعن محمد بن سيرين قال : (**إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم**)(١٩). وقد جاء مثل هذا الكلام عن جمع من التابعين وأتباعهم .

وتتمثل خطورة الكذب عليه (أو ذكر الأحاديث الموضوعة من دون بيان لكذبها في أن ذلك يؤدي إلى أن يعتقد الناس عقائد باطلة ، وأن يدخل في الدين ما ليس منه ، وأن يعبد الله عز وجل بغير ما شرع ، وأن يتفرق المسلمون إلى فرق متناحرة متنافرة .

وعليه فلا يجوز لأحد أن ينسب إلى النبي ﷺ حديثاً إلا وهو يعلم أنه ثابت وهو حديث صحيح أو حسن ، وألا ينقل الحديث إلا من كتبه المعتمدة بأصولها الصحيحة النسبة إلى أهلها ، وليس من كل كتاب ولا عن كل من هب ودب(٢٠)، ولا يجوز له أن يعتمد على اشتهار الحديث على ألسنة الناس أو في الأجهزة الإعلامية أو في الكتب غير المتخصصة في الحديث ، فكم من حديث مشتهر بين الناس ينسبونه إلى النبي ﷺ بلا تردد وهو مما لم يصح عنه ﷺ .

وبهذه العناية حفظ المسلمون دين الله الخاتم أما الأمم السابقة فلم تلتزم بالإسناد وقواعد الرواية التي التزم بها المسلمون ، ولم يميز علماء الأمم السابقة بين الغث والسمين من الروايات ، ولم يعتنوا بتراجم الرواة وأحوالهم ودرجاتهم ، وإنما نقلوا كل ما أعجبهم من عجائب الأخبار وما يستغرب منها فأصبحت الخرافات عندهم وكأنها حقائق تاريخية ثابتة(٢١)، وامتلأت كتبهم بالقصص العجيبة والغريبة التي يسميها علماء الإسلام بالإسرائيليات ، وغلبت هذه الإسرائيليات على الأحكام الشرعية التي أنزلها الله تعالى لهداية العباد ، وأصبح الدين عندهم وكأنه قصص يقرؤها الناس للتسلية .

المصادر والمراجع

١- الإحكام في أصول الأحكام : ابن حزم الأندلسي ، تحقيق : محمود حامد عثمان ، دار الحديث ، القاهرة ، ط ١ ، ١٤١٩ .

٢- اختلاف الحديث : للإمام محمد بن إدريس الشافعي ، تحقيق : عامر أحمد حيدر ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت .

٣- إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول : محمد بن علي الشوكاني ، دار الفكر ، بيروت ، ط ١ ، بدون تاريخ .

٤- إعلام الموقعين عن رب العالمين : محمد بن أبي بكر (ابن قيم الجوزية) . تحقيق : طه عبد الرؤوف سعد ، دار الجيل ، بيروت ، بلا رقم ، ولا تاريخ .

٥- الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث للحافظ ابن كثير : الشيخ أحمد محمد شاكر ، تحقيق : على حسن عبد الحميد ، دار المعارف ، الرياض ، ط ١ ، ١٤١٧ .

٦- البحر المحيط في أصول الفقه : الزركشي ، تحقيق : محمد محمد تامر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٢٢ هجرية .

٧- بحوث في تاريخ السنة المشرفة : د . أكرم ضياء العمري ، مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة ، ط ٥ ، ١٤١٥ .

٨- التأصيل لأصول التخريج وقواعد الجرح والتعديل : بكر بن عبد الله أبو زيد ، دار العاصمة ، الرياض ، ط ١ ، ١٤١٣ .

٩- تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي : عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ، دار إحياء التراث العربي بيروت ، ط ١ ، ١٤٢١ .

١٠- تهذيب اللغة : محمد بن أحمد الأزهري ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٢١

١١- الجامع الصحيح : الإمام ، محمد بن إسماعيل البخاري ،

١٢- الجامع الصحيح : الإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٢٠ .

١٣- الحطة في ذكر الصحاح الستة : صديق حسن خان القنوجي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٥ م .

١٤- خصائص الدعوة الإسلامية (رسالة ماجستير) : محمد أمين حسن ، مكتبة المنار ، الأردن ، ط ٣ ، ١٤٠٣ .

١٥- الرسالة : للإمام محمد بن إدريس الشافعي ، تحقيق : خالد السبع العلمي ، وزهير شفيق الكبي ،

٣- والعقيدة الارتباط الوثيق والالتزام القوى، سواء كان هذا في الحسيات، كما في عقد الحبل، أو في المعنويات، كما في عقد البيع والعهد(١١) وعلى هذا فالعقيدة في اللغة: هي «الحكم الذي لا يقبل الشك فيه لدى معتقده»، ويراد منها الاعتقاد، والمعتقد(١٢).

المعنى الاصطلاحي للعقيدة

يقول صاحب المواقف: زالمراد بالعقائد ما يقصد به نفس الاعتقاد دون العمل(١٣)، وأطلق الإمام الغزالي على العقيدة الإيمان، فقال: «والعقيدة تطلق على الإيمان والتصديق والإذعان على خلاف في البسط والإجمال»(١٤).

والعقيدة أيضاً، هي الرأي المعترف به بين أفراد مذهب واحد، كالعقيدة الرواقية، والعقيدة أيضاً ما عقد عليه القلب والضمير، وما تدين به الإنسان واعتقده، وتطلق في الدين على ما يؤمن به الإنسان ويعتقده، كوجود الله وبعثة الرسل، والثواب والعقاب(١٥)،

والعقيدة: هي الجانب النظري الذي يطلب الإيمان به أولاً وقبل كل شئ، إيماناً لا يرقى إليه شك، ولا تؤثر فيه شبهة(١٦) لأنه إذا كانت كلمة العقيدة تعني الربط والتوثيق، فإن كلمة الإيمان «تعني الربط والتوثيق مضافاً إليها ما يطمئن إليه القلب، ويقتنع به اقتناعاً ذاتياً ونفسياً»(١٧).

مفهوم العقيدة في القرآن الكريم

العقيدة هي الحقائق الأساسية التي عرضها القرآن على الناس، وأيدها بالأدلة والشواهد، ودعا إلى تصديقها والإيمان بها. وكرر ذكرها بأساليب شتى، وطرق متعددة وهي التي تؤلف جو القرآن العام، والأساس الذي تتفرع منه قواعده الخلقية، وأحكامه التشريعية - لا تنفصل عنه أبداً، وهي القاعدة الفكرية التي أراد الله أن يقيم عليها بناء الإنسان وتكوينه. ولقد دعا القرآن الكريم بإلحاح إلى الإيمان بهذه الحقائق الكبرى، دعا إلى الإيمان بالله خالق الكون، وبالحياة الآخرة، التي تتجلى فيها مسؤولية الإنسان، ويتحدد مصيره الأبدي، وبالنبوة والوحي طريقاً إلى معرفة الحقائق التي يريدُ الله أن يلقيها إلى الإنسان، سواء أكان موضوعها عالم الغيب أو حقائق ما وراء المادة أم كان توجيه الإنسان وتنظيم شئونه في هذه الحياة (١٨).

و إذا كان القرآن الكريم لم يذكر كلمة «عقيدة» فقد ذكر مادتها اللغوية، وعبر عنها

بالإيمان.كما في قوله تعالى ﴿من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم(٤)وقوله سبحانه ﴿من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة﴾

ومن هذا يتبين لنا أن العقيدة هي الإيمان الثابت الذي لا يخالطه شك أو ريب، والتي عبر عنها القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾(١٩)، قال تعالى: ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾(٢٠)، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون · أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴾ (٢١) .

ويفهم من هذه الآيات وغيرها أن العقيدة هي الإدراك العقلي الذي يبلغ درجة اليقين الراسخ الذي يسمو فوق الشبهات، والإذعان القلبي الذي يقتضي التسليم الكامل لحكم الله تعالى، والاستسلام لأمره، والالتزام الكامل لكل ما جاء به الإسلام من تعاليم ومبادئ، فليست العقيدة مجرد أدارك ذهني، فكم من أناس أدركوا حقيقتها ولم يؤمنوا بها، وليست قولاً باللسان، فما أكثر الذين يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، وليست عملاً بالجوارح، فما أكثر الذين يظهرون خلاف ما يبطنون، فالعقيدة تنفذ إلى العقل، فتقنعه وتطمئنه، وإلى القلب فتهزه وتحركه، وإلى الإرادة فتدفعها وتوجهها، وإذا اقتنع العقل وتحرك القلب واتجهت الإرادة، استجابت الجوارح واندفعت إلى العمل(٢٢).

المبحث الثاني: النزعة الدينية ووحدة الرسالات السماوية

أولا- النزعة الدينية

ممالا شك فيه أن تاريخ الأديان قد أكد على حقيقة هامة هي أن الدين فطرة مستقرة في أعماق الإنسان، وأن التدين «ضرورة اجتماعية وأساس من الأسس التي لا غنى

للإنسان عنها في إقامة مجتمعه ولا انفكاك للإنسان عنها في وقت من الأوقات ولا مكان من الأمكنة على ظهر الأرض بنفس الدرجة التي لا يسع الإنسان معها أن يتنصل من طبيعته الاجتماعية، أو من مشاعر الحب والتملك والإنماء»(٢٣).

وهذا ما أشارت إليه النصوص الدينية الصحيحة التي تؤكد على أن الدين أمر فطرى في الإنسان ففي القرآن الكريم يبدو الدين ظاهرة كونية تحكم فكر الإنسان وحضارته، كما تحكم الجاذبية المادة وتتحكم فيها، والدين على هذا يبدو وكأنه مطبوع في النظام الكوني قانوناً خاصاً بالفكر الذي يطوف في مدارات مختلفة من الإسلام الموحد إلى أحط الوثنيات البدائية حول مركز واحد يخطف سناه الأبصار(٢٤).

إن الدين حاجة إنسانية وضرورة اجتماعية للفرد والمجتمع ومن ثم فقد اتفق العلماء على أن الإنسان لم يوجد قط بلا دين، بل الإنسان والدين أمران متلازمان، فالتدين أمر فطرى مركوز في النفوس الإنسانية.

يقول «لاروس» فى معجم القرن العشرين إن الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية حتى أشدها همجية وأقربها إلى الحياة الحيوانية وأن الاهتمام بالمعنى الإلهي وبما فوق الطبيعة،هو إحدى النزعات العالمية الخالدة للإنسانية(٢٥).

ويقول الأستاذ محمد فريد وجدي في دائرة معارفه: «نعم يستحيل أن تتلاشى فكرة التدين لأنها أرقى ميول النفس وأكرم عواطفها ناهيك بميل يرفع رأس الإنسان، بل إن هذا الميل سيزداد.. ففطرة التدين ستلاحق الإنسان ما دام ذا عقل يعقل به الجمال والقبح وستزداد فيه هذه الفطرة على نسبة علو مداركه ونمو معارفه(٢٦)،

وعلى ضوء هذه الحقيقة أقرر أنه كما صح أن يعرف الإنسان بأنه «كائن حي مفكر» أو بأنه كائن حي مدني بطبعه «فإنه يصح أيضاً أن نعرفه بأنه «كائن حي متدين بفطرته(٢٧).

ذلك أن الإنسان يولد على الفطرة كما قال الله تعالى ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾(٢٨).ومن ثم فإنه لم تخل جماعة من الناس في أي زمان من عقيدة دينية على نحو ما، وإذا كان الدين والاعتقاد أمراً غريزياً وفطرياً في الإنسان في كل زمان، فإن

الإسلام هو الدين الحق الذي رضيه الله تعالى للناس جميعاً(٢٩).

فقد أخبرنا الله في كتابه العزيز أنه أخذ العهد والميثاق على بنى آدم جميعاً وهم في عالم الذر، وأشهدهم على أنفسهم إقراراً بربو بيته فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾(٣٠).

ففي هذه الآية يبين الله سبحانه تعالى أنه أخرج من صلب آدم وبنيه ذريتهم، نسلاً بعد نسل، وجيلاً بعد جيل، وذلك قبل خلقهم في الدنيا، وأشهدهم على أنفسهم قائلاً لهم «ألست بربكم» فأجابوا «بلى شهدنا» بذلك فالله سبحانه وتعالى أشهدهم على ربو بيته حتى لا يقولوا يوم القيامة: إنا كنا عن هذا التوحيد غافلين أو غير عالمين(٣١).

ومن هذا يتبين أن الاعتراف بالوحدانية لله تعالى كان أمراً مقرراً ومعترفاً به لدى الناس جميعاً منذ خلقهم الله تعالى، أما الشرك والكفر والبعد عن هذه العقيدة السليمة فأمر عرض للإنسانية بعد ذلك(٣٢).

فقد «شاء الله تعالى أن لا يترك الناس بدون هداة يأخذون بأيديهم ويرشدونهم إلى طريق الخير، بل تعهدهم بالأنبياء والرسل حتى يحولوا بينهم وبين البعد عن الطريق القويم كما قال تعالى ﴿.. وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾(٣٣)، وزود الله تعالى آدم أبا البشر منذ البداية بنور وحيه وحياة من فضله ما ظهر به فضله(٣٤).

- الإلحاد ليس أصيلا في تكوين الأفراد أو المجتمعات

إن هذه الفطرة لو تركت وشأنها لاتجه الإنسان إلى معرفة الله، وحاول التقرب إليه لكن هذه الفطرة قد تنحرف بصاحبها عن الصراط السوي وهذا ما حدث، فقد عبد أناس الأصنام، وعبد آخرون الأشجار والحيوان وبعض مظاهر الكون والطبيعة، فكان الدين لصيانة الفطرة من الانحراف، ولتقويمها إذا أعوجت وتصحيحها إذا انحرفت(٣٥).

وذكر الإمام ابن كثير نفس المعنى عند تفسير قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾(٣٦)، فقال: «أخبرنا تعالى أن هذا الشرك حادث في الناس، كائن بعد أن لم يكن، وأن الناس كلهم

كانوا على دين واحد وهو الإسلام، قال: ابن عباس، كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام، ثم وقع الاختلاف بين الناس، وعبدت الأصنام والأنداد والأوثان، فبعث الله الرسل بآياته وبيناته وحججه البالغة وبراهينه الدامغة، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة(٣٧).

وقد نصت السنة النبوية المطهرة على أصالة النزعة الدينية عند الإنسان وأن الشرك أمر طارئ على الإنسانية.

فقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن عياض بن حمار المجاشعي عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل : «خلقت عبادي حنفاء مسلمين فاجتالتهم الشياطين وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً(٣٨) . فالإنسان لا غنى له عن الدين لأنه يحسه في نفسه شعوراً وجدانياً ، ويشير إلى هذا الشعور والوجدان ما رواه الشيخان عن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبي ﷺ أنه قال : «كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، وينصرانه ، ويمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟» ثم قال أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم (فطرت الله التي فطر الناس عليها) (٣٩) .

- عوامل الانحراف في الفطرة

وبالنظر في هذين الحديثين يتضح لنا أن الانحراف عن الفطرة التي هي الإسلام والتوحيد والدين الحق أمر طارئ يعرض للإنسانية نتيجة لعوامل خارجية تتمثل في وسوسة الشياطين، وتأثير المجتمع بدأً بتأثير الأبوين، إذ يحولان المولود عن الفطرة التي هي الحق إلى الأديان الباطلة من اليهودية أو النصرانية أو المجوسية أو غيرها.

فالبيئة الفاسدة خطر كبير على الفطرة الإنسانية، فإنها تمسخها، وتبعد بها عن معرفة الخالق سبحانه وتعالى، والالتجاء إليه، ويتجلى ذلك في التأثير المباشر للأسرة على النشء فقد تلقنه المبادئ المنحرفة، فيشب الطفل وهو متعصب لها نتيجة الأثر النفسي لوالديه فيه، وهذا ما قاله سيدنا رسول الله ﷺ «ما من مولود يولد إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه(٤٠) ولم يقل: يسلمانه، لأن الإسلام دين الفطرة».

وهذا ما يفسر لنا سر انصراف بعض العلماء على المستوى العالمي عن التدين، فإن الواحد منهم إذا ما تلقن في طفولته بعض الآراء المشوهة عن الله تعالى، مثل التثليث، والبنوة، والصلب، والخطيئة، وما إلى ذلك، ثم اتجه إلى الدراسة العلمية في فرع من فروع العلم الحديث الذي يعتمد على المنهج العلمي الذي يقوم على مبادئ العقل، فإنه يشعر بتعارض بين ما تلقاه في صباه، وبين ما يصل إليه من نتائج وحقائق، ثم ما يلبث هذا الصراع النفسي أن ينتهي بنبذ فكرة التدين، والاتجاه فقط نحو العلم المادي الذي جعله الله مباحاً لمن آمن به، ولمن كفر.

فالتنشئة الخاطئة، والبيئة الفاسدة، والتعصب الأعمى، والحرص على المصالح الشخصية، والجري وراء الأهواء والشهوات، كل هذه العوامل تؤدى إلى انحراف، وشيوع الإلحاد(٤١).

وعلى ذلك فإن هذه الأديان الباطلة أمور عارضة للإنسانية جاءت إليهم عن طريق الغواية والإضلال بواسطة الشياطين من الإنس والجن أو بواسطة التعليم والتثقيف من الآباء والأمهات أو المعلمين والأساتذة الذين انحرفوا بسبب ضعف عقولهم أو تأثرهم بالمذاهب الضالة المنحرفة التي أخذوها عمن تعلموا على أيديهم وقالوا ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾(٤٢).

بواعث النزعة الدينية في الإنسان

عندما نبحث عن الباعث والدوافع التي نشأ عنها التدين عند الإنسان نجد أنها بواعث أصيلة متمكنة في أعماق الإنسانية، بحيث لا يخلو منها نفس إنسان ولا تتعرى منها بواعث حياة مجتمع في أي جيل من أجيال البشرية وفى أي حال من أحوالها وذلك لاحتياج الإنسان للدين بصورة عامة وذلك إما بدافع الفطرة أو الغريزة أو العقل أو العادة، أو بغير ذلك حتى إنه لا يمكن تصور إنسان بلا دين ولا عقيدة لأن الدين والعقيدة هما غذاء الروح كما أن الطعام والشراب غذاء الجسد وإذا كان الإنسان عندما لا يجد الطعام الطيب فإنه يبحث عن أي طعام يسد به رمقه حتى ولو كان الطعام فاسداً حامضاً كذلك الأمر بالنسبة للدين والعقيدة عندما لا يجد الإنسان العقيدة الصحية فإنه يبحث عنها حتى يستقر ويطمئن حتى ولو كان هذا الدين فاسداً باطلاً لذلك نجد انه قد اتفقت كلمة العلماء

والباحثين على أنه لا يمكن أن يوجد إنسان بلا دين أو عقيدة.

يقول الفيلسوف زوليم جيمسس يرجح لدينا أن الناس سيظلون يصلون إلى أخر الزمان بالرغم مما قد يأتي به العلم من عكس ذلك، اللهم إذا تغيرت طبيعتهم العقلية إلى حالة ليس لدينا شيء مما نعرفه يهدينا إلى توقعها.

ويقول برجسون «قد نجد في الماضي أو الحاضر مجتمعات بشرية لا تعرف العلم أو الفن أو الفلسفة ولكن لا نجد ثمة مجتمعاً بلا دين»(٤٣).

ضرورة الدين للإنسان

وإذا كان الدين على هذا القدر من الأصالة في النفس الإنسانية فإنه كذلك يمثل بالنسبة للإنسان ضرورة حتمية للفرد والمجتمع ولا يمكن أن يكون هناك دين بلا أفراد ولا مجتمع ولاأفراد بدون دين، فإذا وجد مجتمع بدون دين، فإن هذا المجتمع مصيره الفوضى والفساد واختلال توازنه بالتالي اختلال أنظمته وقوانينه.

فحقيقة الدين أنه توجيه الحياة والمجتمع وهداية الإنسان لما فيه خيره في الدنيا والآخرة، ومن ثم فالإنسانية دائماً في حاجة إلى الدين والتدين، وأن الدين ضرورة من ضروريات حياته وحاجة من حاجات نفسه فلا غنى له عن الإيمان بربه بحال من الأحوال، ولذلك لم تخل أمة ظهرت على سطح البسيطة من دين وعقيدة كما قال الله تعالى ﴿ **وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ**﴾

إن الدين ضرورة للإنسان من شتى نواحيه «فهو ضرورة لا بديل عنها لنفسه، فإنه يغذى رغبتها في التسامي ويوازن بين غرائزها في الحقوق، فلا شد يؤدى إلى إرهاق، ولا رخاء يفضي إلى انزلاق، ولا مناوبة تدعو إلى تهافت».

وضرورة لخلقته وطبيعته فهو يلبى الفطرة إذا تطلعت إلى الغيب ويردها إلى الاستقامة إذا جمحت بين الجو امح وينقيها من الأوضار والشوائب التي قد ترين عليها وتذهب بنضارتها، وهو يبحث دعائها أين ما تدعو، ويفسر أحكامها حيث ما تحكم، وضرورة لتفكيره... فهو يعلى البصيرة ويفتح أمامها أبواب المعرفة ويسمو بالعقيدة، وهو ضرورة للفرد يصلح أجهزة نفسه ليؤهله إلى الكمال الأعلى في الحياة، ويهذب سلوكه ليبوأه المنزلة الكريمة في المجتمع.

وضرورة للمجتمع، يوثق علائقه ثم يحفظها عن التفكك ويقرر الحقوق والتبعات بين أفراده، ويمهد لها النفوس ثم يصونها عن أن تهد يد، ويؤسس الأخوة العامة بينهم، ويقيمها على مبدأ الحب في الله والمساواة في العدل.

والدين كذلك ضرورة خلقية وسياسية واقتصادية، فإن فلسفات الأخلاق والسياسة والاقتصاد التي ابتدعها الناس، والقوانين التي اشتقوا منها، وبنوا عليها لا تبلغ كل أهداف الإنسانية، ولا تستوعب كل حاجاتها، ثم هي لا تقيم العدل التام بين غرائز المرء المتنوعة، وبين ضروراته المختلفة، وهى كثيراً ما حافت على بعض النواحي على حساب البعض الآخر.

فالإنسان يرتبط بالدين من شتى نواحيه، فلا غناء له عنه أبداً، ولا صلاح له بدونه، ولا سلام له إلا في ظلاله، لأن الدين الحق هو الذي يلبى ضروراته كلها، تلبية عادلة لا نقص فيها ولا تزيد، ولا ميل ولا نشوز(٤٤) .

ونخلص مما سبق بحقيقة علمية مؤكدة وهي أن الإنسان دائماً في حاجة إلى الدين والعقيدة، ذلك أن الدين في حقيقته هو «الجانب الأخر من الحياة لأن كل العبادات والفروض الدينية بجانب غايتها السامية في صقل الأرواح والارتفاع بإنسانية الإنسان تهدف إلى خلق المواطن الصالح الذي يؤدى واجبه بإخلاص، ويسلم الآخرون من لسانه ويده، فيعم الخير والصلاح حياة الناس فيتضاءل الفساد والانحراف»(٤٥) .

ثانيا: وحدة الرسالات السماوية من حيث العقيدة:

إن الدين الذي ارتضاه الله تعالى للإنسانية منذ أن وجد الإنسان على ظهر الأرض أي من آدم عليه السلام إلى خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ هو الإسلام، والإسلام ذلك الدين الإلهي للمرسلين جميعاً كما قال ابن جرير زشهادة أن لا إله إلا الله ، والإقرار بما جاء من عند الله ، وهو دين الله الذي شرعه لنفسه وبعث به رسله ودل عليه أولياءه ، لا يقبل غيره ولا يجزى بالإحسان إلا به(٤٦) قال الله تعالى ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإسلام﴾.

وقال تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾(٤٧)

قال ابن كثير وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسلام﴾ إخبار منه تعالى بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام، وهو إتباع الرسل فيما بعثهم الله به في كل حين حتى ختموا بمحمد ﷺ الذي سد جميع الطرق إليه إلا من جهة محمد ﷺ فمن لقي الله تعالى بعد بعثة محمد ﷺ بدين على غير شريعته فليس بمتقبل كما قال تعالى ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسلام دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾، وقال في هذه الآية مخبراً بانحصار الدين المتقبل عنده في الإسلام ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾(٤٨) .

فالإسلام هو دين الله تعالى في جميع رسالاته إلى الناس جميعاً بمعنى الاستسلام لله والانقياد له وإخلاص العباد له جل في علاه. ثم صار الإسلام علماً على الدين الذي جاء به محمد ﷺ من ربه وصار اسم المسلمين علماً على أتباعه بناءً على تسمية خليل الله إبراهيم لهم بهذا الاسم(٤٩) قال تعالى ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾(٥٠).

ومن هنا فإن رسالة الأديان لم تكن تتجه إلى خلق الميول الدينية في النفوس، وإنما كانت توجه هذه الميول -التي هي موجودة أصلاً- الوجهة الصحيحة لتصل إلى الدين الصحيح فالوحي الإلهي إذن جاء رحمة من عند الله يهدى النفوس الضالة ويساعد العقل الإنساني على الوصول إلى الحق من أقرب الطرق وأيسرها(٥١)، وإذا كانت رسالات الرسل قد تعددت فليس معنى ذلك أنها كانت مختلفة في أصولها وأهدافها فالدين الذي شرعه الله للبشرية دين واحد في أصله ومضمونه، فقال تعالى ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾(٥٢)، وإذا كان الدين الإلهي واحداً في أصله ومضمونه فإن هناك اختلافاً واضحاً بين الأديان السماوية فيما يتعلق بالشرائع، نظراً لأن هذه الشرائع في الأديان التي سبقت الإسلام كانت محدودة بحدود الزمان والمكان ومتغيرة بحسب الظروف والأحوال(٥٣) وفى ذلك يقول القرآن الكريم ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾(٥٤).فقد جعل الله تعالى الشرائع مختلفة من حيث الفروع لا من حيث الأصول العامة وذلك رحمة منه

بعباده، ومقتضى حكمته وعلمه بخلقه. (٥٥)

المبحث الثالث: أثر الدين في حياة الفرد والمجتمع:

نشير هنا إلى أهم آثار العقيدة الدينية في حياة الفرد والمجتمع وخاصة العقيدة الإسلامية بوصفها العقيدة الدينية الصحيحة الباقية في عالمنا المعاصر فنقول:

أولا: أثر الدين في حياة الفرد

يمكن الإشارة إلي أهم الآثار التي يحققها الدين للفرد وهي كثيرة ومتعددة ويمكن أن تتلخص في الأمور التالية:

١- **تترك العقيدة الدينية أعظم الأثر في عقل الإنسان** لأنها تمد الإنسان بطاقة هائلة وزاد فكرى عظيم ذلك أن الدين «يقدم للإنسان أعلى أنواع الغذاء العقلي النظري، ويشبع فيه هذا التطلع الدائم إلى المبدأ و المصير، أو إلى العلة الأولى والغاية الأخيرة، ويقدم له الإجابة الشافية عن أسئلته الأساسية ومشكلاته الكبرى، والتي تتلخص في إرشاده إلى الخالق، وتعريفه بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، وتحديد المبدأ والمعاد إلى جانب إعطائه مقاييس الخير والشر، والحلال والحرام، أو القيم والأهداف بوجه عام.

وربما حاول الناس في بعض العصور أن يشبعوا هذا التطلع العقلي، أو هذه القوة النظرية عند الإنسان، أو حاولوا الإجابة عن تلك التساؤلات إما بطريق المعارف العلمية (أي التجريبية) أي من خلال النظر والفكر في الطبيعة، تحت عنوان: العلم يغني عن الدين. وإما بطريق الإمعان في النظر العقلي المحض، والتأمل الفلسفي المجرد ، أي من خلال التفكير والتأمل الذاتي في الإنسان ، فيحاول العقل أن يجيب نفسه بنفسه ، تحت عنوان : الفلسفة تغني عن الدين .

فالعلوم والمعارف التجريبية لا يستغني بها الإنسان عن طلب تفسير لهذا الكون، وعن دور الإنسان وسلوكه فيه، ومصيره من بعده، وهل يوجد وراء هذا الكون شيء لا يصل إليه العلم أم لا ؟ .

وأياً ما قيل في الإجابة عن هذه الأسئلة وسواها... وفي مدى إقناعها للعقل، فإنه سيبقى أمام العقل في طرفي الوجود - مبدئه وغايته - شيء لا تفسره (المعارف العلمية) بوجه من

الوجوه ! .

ومن وجه آخر، فإن (العلم) يحدثنا عن الشيء كيف يعمل. ولا يحدثنا عنه لم وجد، ولم كان يعمل على هذا الوجه ؟ وهذا معنى قول بعض المفكرين: العلم يجيب عن (كيف)؟ ولا يجيب عن (لم) ؟ .

- أما الفلسفة التي تصدى أهلها للإجابة عن الأسئلة المصيرية، فيكفينا في بيان عجزها عن إشباع تلك القوة النظرية وتكميلها عند الإنسان، أن الإنسان ليس مؤهلاً لهذه الإجابة، ولا متفرغاً لها، والفلاسفة الذين فعلوا ذلك كانوا يرجمون بالغيب، لأن الدور الأساسي للعقل تيسير الحياة لا تصوير الوجود.

ولم تكن الإجابات النابعة من العقل الإنساني وحدها إلا إجابات ناقصة أو مبتورة، ولهذا لم تستقر على حال، ولا يزال التعديل والتبديل يلحق بها في كل يوم، ولو كانت صحيحة لكانت متفقة لأن الحق لا يتغير ولا يتعدد، ولهذا كان التصور الاعتقادي أو العقيدة التي تتابع عليها الأنبياء جميعاً واحدة من لدن آدم إلى محمد ﷺ (٥٦).

٢- كما يظهر أثر العقيدة الدينية في الجانب الروحي، وذلك بما تقدمه من غذاء روحي للإنسان، ذلك «أن النزعة الروحية عند الإنسان وشعوره النفسي والوجداني لا يمكن تلبية أو إشباعه إلا من خلال الدين؛ لأن العقيدة الدينية هي التي تصل الإنسان بخالقه سبحانه وتعالى وتصفه مع صفاته العلي أمام عتبة اليقين والاطمئنان والرضا، وتطلق أشواقه الروحية: (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) وهنا نقول: ما كان الإنسان بحاجة إلى الدين في يوم من الأيام - والدين عند الإنسان حاجة ثابتة لا تنقطع - كحاجته إليه في هذا العصر المادي الذي يدعى بعصر العلم وعصر القلق أو الأمراض النفسية الناجمة عن طغيان النزعة المادية ،وسيطرة اللذات الحسية وأهواء النفوس ورغباتها في اعتصار الحياة ! .

فإذا كان الدين يتعامل مع البعد الروحي للإنسان فوق تعامله السابق مع بعده العقلي... فمعنى ذلك أنه ينفي عن الشخصية الإنسانية الفصام والتعارض والتناقض، ويحقق لها السلام الحقيقي في أولى خطواته، وأهم مراحله، كما أنه يعتبر فوق ذلك أساس وجوده... لأن الروح هي أساس وجود الإنسان وأساس حياته.

وإذا كانت الروح غيباً من الغيب لا سبيل إلى الاطلاع عليه في عالم الشهادة، فمعنى ذلك أن وجود الإنسان غيبي وليس مادياً... فمن آمن بالغيب - واليوم الآخر - فقد وجد نفسه، وحقق أبعاده ولهذا كان المؤمن هو الحي، والكافر هو الميت، قال تعالى: ﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾(٥٧).

٣- كما أن أثر العقيدة الدينية يكمن في تحرر الإنسان من العبودية لغير الله تعالى والخوف مما سواه. يقول الإمام ابن تيمية: إن الإنسان على مفترق طريقين لا ثالث لهما فإما أن يختار العبودية لله، وإما أن يرفض هذه العبودية فيقع لا محالة في عبودية لغير الله، فالإنسان لا ينفك عن وصف العبودية، لأنه كائن حي ذو حاجات ومطامع، ولأنه له قلب، وإما أن يكون عبداً لله ، وإلا فهو عبد لغيره ، وبتعبير آخر إن لم يرض أن يكون عبداً لله استعبدته حاجاته ومطامعه وأهواؤه وشهواته ، وطواغيت الجن والإنس ، وما يزينون لبني آدم من معبودات ومن هذا يتضح أن العبودية لله تحررهم من كل عبودية أخرى شعروا بها أم لم يشعروا ، ورضوا بها أم سخطوها(٥٨).

فمتى تحققت العبودية لله تعالى تحقق معها النجاة من كل ما يسيء قال تعالى في حق يوسف - عليه السلام - ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (٥٩).

فمن كانت عبوديته لله وجهاده في سبيله فعمله كله فضيلة وهو لا ينحرف في أي شأن من الشئون إلا عندما يزيغ عن هذه العبودية.

إن العبودية لله تعالى تعني الانقياد التام والطاعة الكاملة لله، وهو ما يعني التحرر من كافة العبوديات والانقيادات والتبعات لأي جهة أخرى، وهذا ما يكشف عن التحرر الحقيقي للإنسان من كافة الأغلال والقيود التي طالما كبلت إرادته وفكره وجسمه وروحه وحتى عواطفه خلال مسيرته الحافلة بالعناء، فالعبودية لله تعني أسمى أنواع الحرية التي لم يحلم بها الإنسان ولم يتصورها أبداً وهو يصارع ألوان العبوديات التي سلبت منه نعمة الحرية والحياة الآمنة والعيش الهانئ .

إن العبودية لله تحرر الإنسان ليس من قيود الظلم والامتهان والاستعباد والأصنام

والآلهة المزورة فحسب، وإنما أيضاً من قيود النفس وأهوائها الجامحة ونزعاتها الجنونية، وتفسح المجال لعنصر العقل لكي يتخذ القرارات بشكل سليم وناضج بعيداً عن التأثيرات الكاذبة والأجواء المحمومة، وهو ما يتيح للإنسان شق طريقه بشكل أفضل وأداء دوره بالصورة المطلوبة، ولئن كانت الحرية في الحضارات الغربية تبدأ من التحرر لتنتهي إلى ألوان من العبودية والأغلال، فإن الحرية الرحيبة في الإسلام على العكس فإنها تبدأ من العبودية المخلصة لله تعالى لتنتهي إلى التحرر من كل أشكال العبودية المهينة(٦٠).

صحيح أن العبودية لله لا تسمح للإنسان بأية حرية حيال الله تعالى، أي لا حرية له في التنصل من التكاليف والمسئوليات التي ألقاها سبحانه على عاتقه، ولا العمل خارج إطار النهج الإلهي ولا التحرك خارج إطار المسار الرباني ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ (٦١)، لكن هذه العبودية تمنحه في نفس الوقت الحرية الكاملة من أي قيد فكري وسياسي واجتماعي ونفسي وغيرها من القيود التي تحاول أن تفرضها عليه الأفكار والعقائد والتقاليد والقوى التي لا تمت إلى المبدأ الإلهي بصلة ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾(٦٢).

إن الإيقان بوجود الحق تعالى - كما يقول الجيلاني - لا يكتمل وفي القلب جماعة من الآلهة، فخوفك من البشر وتأميلك فيهم، ورؤيتك للضر والنفع والعطاء والمنع منهم يعني نقص فكرتك عن الوجود الإلهي فلا إله إلا الله تحتوي على معنيين، نفي كلي لغيره، وإثبات حقيقي له وحده، فإذا اعتمد القلب على غيره تعالى كان هذا نقصاً في كمال الإثباتز(٦٣).

٤- **العقيدة الدينية تحرر الإنسان من الخرافات والأوهام**،و من الخوف من المجهول ومن الذل والهوان والجبن والأنانية والجشع والظلم والخضوع لغير الله، وذلك لأن العقيدة الدينية أعظم محرر للإنسان من كل عوامل القهر، والخوف، والتسلط، والجبروت، فلا شك أن أعظم ما يستذل أعناق الرجال، ويقهر إرادة الإنسان: الخوف على الحياة، والخوف على الرزق - وهما الأمران اللذان ربطا في العقيدة الإسلامية - ومن خلال أسماء الله الحسنى لمشيئة الله المطلقة من دون خلاف ولا نزاع، فلا قهر إذاً، ولا عبودية، ولا

قبول بالذل والطغيان، ولكنها الحرية الحقيقة بأروع صورها وأعمق معانيها، وليست قصة سحرة فرعون عنا ببعيدة، فقد حدثنا القرآن عن هذه القصة وعن دروسها وعبرها ومعانيها في عدة مواضع، فيوم آمن هؤلاء السحرة برب هارون وموسى، الذي أظهر المعجزة وأبطل السحر - عرفوا طريقهم إلى الحرية والخلاص من ذل القهر والعبودية، وحين توعدهم فرعون بأبشع صوره الانتقام والقتل واجهوه بقولهم:

﴿ فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ﴾(٦٤).

وهكذا تكون الحياة جديرة بأن تعاش في نظر الإسلام: تكليف عقيدة لا عبث أهواء، وإدراك عقل لا تسلط غرائز، وعمق إيمان لا رياء مظاهر وشقاء كدح لا أحلام استرفاء (٦٥) فلا مجال مع وجود الإيمان للجبن ولا للنفاق ولا للكذب ولا للشقاء فالأعمار مقدرة وهى بيد الله قال تعالى (وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله) والأرزاق مقدرة وهى بيد الله قال تعالى (وما من دابة إلا على الله رزقها).

ذلك أن العقيدة الإيمانية تغرس في نفس الإنسان أن النافع الضار والمحيي المميت هو الله تعالى، وبذلك فهي تمنع كل ما فيه استعانة ولجوء إلى غير الله، لدرجة أن هذه الاستعانة تعتبر شركاً بالله، ونتيجة لذلك حرم الإسلام كل مظاهر الاستعانة بغير الله كالكهنة أو التمائم أو تصديق الكاهن، وما شابهها، وقد اعتبر -ﷺ- أن تصديق الكاهن كفر بواح فقال: «من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد» إذ ليست هناك خرافة أقدر من أن يعتقد الإنسان أن النفع والضرر يأتي من إنسان أو شجر أو حجر أو مذرة فرس أو خرزة زرقاء ونحو ذلك(٦٦).

إن أساس المجتمع الفاضل عقيدة صالحة ترفع عن العقول لوثة الوثنية، وانحراف التفكير وضلال العبادة، وتطهر المجتمع من الزيغ وعبادة الأصنام، وتدعو إلى عبادة الله الواحد الأحد، المستحق للعبادة، المنفرد بها، وأنه هو الخالق القادر، ليس له كفء ولا مثيل، ولم يلد ولم يولد وهو الهادي إلى سواء السبيل(٦٧).

٥- كما أن أثر العقيدة الدينية يبرز في تحقيق السعادة والطمأنينة والسكينة والاستقرار للإنسان.فليست السعادة في وفرة المال ولا سطوة الجاه ولا كثرة الولد ولا نيل

المنفعة ولا في العلم المادي، فالسعادة شيء يشعر به الإنسان بين جوانحه: صفاء نفس، وطمأنينة قلب، وانشراح صدر، وراحة ضمير، فالسعادة واطمئنان النفس شيء ينبع من داخل الإنسان، فإذا كانت السعادة منبتها النفس البشرية والقلب الإنساني، فإن الإيمان بالله غذاؤها وهواؤها.

ذلك أن الإيمان بالله تعالى يأخذ الإنسان إلى عالم السكينة والاطمئنان والراحة النفسية وتجعل الإنسان ينعم بصحة نفسية بعيداً عن الاضطرابات والأزمات النفسية. قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ (٦٨).

وقال تعالى:﴿ الذين امنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (٦٩)،سفطمأنينة القلوب بذكر الله طمأنينة عامة تشمل الأنس بالصلة بالله، والسلامة من حيرة الشك ، والاطمئنان إلى الإيمان ، ومعرفة المصير والمنقلب ، وإدراك الحكمة من الوجود ، والصبر على الشدائد، والشكر على النعم ، وما يتعلق بالقلوب من راحة ورضي واطمئنان عام؛ وهي طمأنينة يجدها المؤمن في أعماله حية عميقة ويعيشها في واقعة ، وقد يصعب عليه تصويرها ؛ ولكن مجرد تصور من يعش مقطوعا عن ذكر الله والصلة به يقربها إلى الذهن، إذ أن من ينقطع عن الصلة بالله يعيش في غاية التعاسة والشقاء النفسي ، وهي صورة مقابلة لاطمئنان القلوب الذي يحصل لها بذكر الله ذلك أن العقيدة الدينية لها دور كبير في الهدوء النفسي والطمأنينة القلبية فلا عقد نفسية، ولا أمراض عصبية، ولا حوادث انتحار.

فالإيمان بالله ينير الظلمات في هذه الحياة ففي ساعة اليأس يتذكر الإنسان أن هناك ملاذاً يلجأ إليه، وأن ربه قادر على معونته فليس هناك ما يدعوه إلى اليأس والجزع فتطمئن نفسه وتصغر أمامه الأهوال وتهون المصائب. فالله تعالى يقول: ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ (٧٠) ويقول أيضاً: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٧١) ويقول الله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾(٧٢) فالإيمان بالله لا يرفع الآلام والقلق عن قلب الإنسان فحسب، بل إنه يمنع ورود القلق والإضطراب على القلوب فلا يصل إليها، يقول تعالى: ﴿وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ

إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٧٣) .

فالآلام النفسية تهلك صاحبها، من إحساس بالندم، وشعور بالذنب، ومن أوهام تثقل كاهل الفرد، ومن أمراض نفسية ترهق الذات البشرية، فالإنسان يحتاج إلى واقيات من شر هذه المتاعب فبالإيمان تتحرر الخواطر من ثقل الهموم ويهيئ درعاً واقياً لروح الإنسان أمام الآلام النفسية، قال تعالى ﴿ فعسي أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا ﴾ (٧٤).لكن السعادة الحقيقية إنما هي سعادة النفس وطمأنينتها، وذلك لا يتوافر على الدوام، إلا بالإيمان، فالإيمان هو تصديق القلب وجزمه بوجود إله مدبر حكيم، كل ما يقع في ملكه بحكمته وإرادته، وهو سبحانه يقضي بالحق، ﴿وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾(٧٥).

ومن ذلك يتضح لنا أن الركيزة الأساسية للسعادة النفسية والطمأنينة القلبية هو الإيمان بالله إذ يضفي على النفس الأمان ويمنح الإنسان المؤمن نعمة الاستقرار، هذا وقد اكتشف علماء الغرب أن الأسباب الرئيسية للأمراض العصبية والنفسية كالهم والقلق والحزن هو الشعور بالإثم أو الخطيئة والحقد والخوف والشك والألم وقد نجحوا في تقصي أسباب الاضطرابات النفسية، ولكنهم فشلوا في معالجة هذه الاضطرابات، لأنهم لم يلجئوا في علاجها إلى بث الإيمان بالله في نفوس هؤلاء المرضى.

فالاسترسال في الهم والقلق حالة نفسية لها علاقة بالدين، فقد ثبت لدى علماء النفس والطب النفسي، أن التوبة تشفي من كثير من الأزمات والأمراض النفسية، لأنها تعين علي إعادة تكيف الإنسان مع نفسه، ومع مبادئه، ومع مجتمعه القائم علي المثل الأعلى، الذي هو عبادة الله في النظام الإسلامي.

كما قد أثبتت التجارب العلمية أن الاستغراق في الهم والتمادي في القلق حالات نفسية سرعان ما تضعف الجسم وتصيبه بشتى الأمراض، ومصدر الهم هو استشعار الإنسان بضعفه أمام أحداث الحياة، ولكن الإيمان القوي بالله والاستمساك بالدين كفيلان بأن يقهرا القلق والتوتر العصبي وأن يشفيا هذه الأمراض، وقد اعترف بهذه الحقيقة الدكتور (بريل) إذ يقول: (إن المرء المتدين حقاً لا يعاني قط مرضاً نفسياً) (٧٦).

٦- **كما أن اثر الدين يتمثل في تحقيق الأمل والأمن والرضا والحب والمودة** والإيثار والتفاؤل، ثماراً لغرس العقيدة في نفس المؤمن وذخائر لا تنفد لإمداده في معركة طويلة الأمد من المستحيل أن يخلو المرء فيها من كوارث تصيبه وقد اثبت الاستقراء والمشاهدة أن أشد الناس جزعاً وأسرعهم انهياراً أمام شدائد الحياة هم الملحدون والمرتابون وضعاف الإيمان، لأنهم لا يؤمنون بقدر فيرضوا به، ولا بإله فيطمئنوا إلى حكمته في خلقه، أما المؤمنون فهم أصبر الناس على البلاء، وأثبتهم في الشدائد، وأرضاهم نفساً في الملمات، لأن إيمانهم بالقضاء والقدر يهون عليهم البلاء، لأنهم وعرفوا من لطف ربهم أن هذه الشدائد دروس قيمة وتجارب نافعة لدينهم ودنياهم تنضج نفوسهم وتصقل إيمانهم.وذلك من ثمرة الأيمان بالله تعالى ذلك أن الإنسانس يواجه في حياته أموراً عديدة تنغص عليه عيشة، وتسبب له أزمة روحية مستعصية، كلما تذكرها ولم يجد لها تفسيراً مقنعاً ومعقولاً، وهذه الأمور هي :

أ - هاجس الفناء ب - المصائب والنكبات ج - المادية المفرطة

وهنا يأتي التساؤل: كيف تعالج العقيدة الدينية عوامل الأزمات الزوحية ؟ والجواب علي ذلك:أن العقيدة الصحيحة هي وحدها القادرة على مواجهته عوامل الاضطراب المذكورة وتحقيق السكينة للإنسان والتخفيف من الأزمات الروحية التي يتعرض لها وذلك:

أ- ولأن العقيدة الدينية الصحيحة بما تثبته من حياة أخرى تعطي للموت مفهوماً آخر، فترفف أن يكون الموت فناءً مطلقاً للإنسان ونهاية لحياته وضياعاً لآماله وجهوده وطموحاته، بل تعتبره عملية انتقال من عالم ضيق إلى عالم أوسع، ونقله من حياة زائلة إلى حياة أبدية مستقرة حقيقية.

ب - ولأن العقيدة الدينية بما تقدمه من تفسيرات واقعية للمصائب والنكبات والمحن والآلام الطارئة التي تنتاب الإنسان في هذه الحياة تغير من معنى ومدلول هذه الأمور .

ج - لأن العقيدة الدينية بما تقدمه من تعاليم أخلاقية تحد من صورة الحرص الذي يسبب الاضطراب الناشئ عن الإخفاق ومن فورة الهلع الذي يسبب الغم نتيجة العجز عن تحقيق كل الطموحات المادية العريضة ، وأيضاً بما تقرره من برامج لتقوية السجايا والصفات الإنسانية والمعنوية ، تقضي على أهم أسباب الإفراط المادية ، فهي من جانب

تشجع على البذل والعطاء مع التلويح والوعد بالثواب الجزيل والأجر الجميل ، ومن جانب آخر تقلل من أهمية هذه الحياة المادية إذ تعتبرها وسيلة لأهدافها(٧٧).

ذلك أن الإيمان يجعل الإنسان متفائلا دائما راضيا بما قسم الله، لا يعرف التشاؤم سبيلا إلى قلبه ولا اليأس طريقا إلى نفسه، ولا يملك التحسر على ما فاته من أمور الدنيا فيشل حركته ويميت نشاطه « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شرك لكم والله يعلم وانتم لا تعلمون».

٧- الدين يكسب الإنسان سلوكاً واعياً وحياة مستقيمة.لأن الدين يربي في الإنسان العزة والكرامة والإحساس بالمسئولية. كما تربى العقيدة الدينية في الإنسان قوة عظيمة من الإقدام والصبر والثبات والتوكل، كما أنها هي السبيل لنجاته وفلاحه، كما تربي فيه الألفة وعزة النفس فلا يطأطئ رأسه أمام أحد من الخجل ولا يتضرع لأحد غير الله. (٧٨)

ثانيا: أثر العقيدة الدينية في المجتمع

لا ريب أن أثر العقيدة الدينية في المجتمع أعم وأشمل وذو ضرورة قصوى وأهمية كبرى، لأن في صلاح الفرد صلاح المجتمع، فالحدود بين «الفرد والمجتمع» متداخلة ومتشابكة، فما المجتمع في واقع أمره إلا أفرادا ربطت بينهم روابط مشتركة، وكل جهد يبذل لتكوين الفرد الصالح هو عمل أصيل لتكوين المجتمع الصالح، وتتمثل آثار العقيدة الدينية في أمور أهمها:

١- الدين هو الركيزة الأساسية لبناء المجتمع الراقي المجتمع الفاضل، المجتمع السعيد الذي يقوم على أساس التماسك والترابط، وهذا لا يتحقق إلا من خلال عقيدة دينية صحيحة، وشر ما يصيب المجتمع هو التفكك وضعف الروابط بين أبنائه، وذلك بغلبة الأنانية على أنفسهم، ولهذا كل بناء أو إصلاح أو تغيير اجتماعي لا يقوم على إصلاح الأنفس وإيقاظ الضمائر وتربية الأخلاق أشبه ببناء على كثبان الرمال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾.(٧٩)

٢- **كما أن الدين هو أساس تحقيق التعاون بين أفراد المجتمع**، والذي لابد أن يكون

قائماً على روابط وضوابط تجعل منه عملا نافعاً، ذلك أن للدين «وظائف نفسية واجتماعية فالوظائف النفسية: تجعل من الدين غذاء ضرورياً لقوى النفس وعصارة مقومة لحياتها، والوظائف الاجتماعية: لا يكون موضوعها الفرد وحده وإنما المجتمع ككل ويكون لها شأن كبير وأثر عظيم في حياة الجماعة وهي تتمثل في التعاون الذي لابد أن يكون قائماً بين أفراد الجماعات، ولكن هذا التعاون لابد أن يكون له روابط وضوابط تجعل منه عملاً نافعاً مثمراً وتقيمه على أسس من التعاون والعدل والمحبة والإخاء، ومن هنا كان التعاون مقتضياً لقانون ينظم علاقة الناس مع بعضهم وبين الحقوق والواجبات المفوضة لهم أو عليهم، ولكن لابد لهذا القانون من سلطة قاهرة تحمي قواعده وتحاسب الناس على طاعتهم أو مخالفتهم له ثم تقرر الجزاء لهم أو العقاب عليهم(٨٠).وهذا ما يدعو إليه الدين.

٣- **إن العقيدة الإيمانية الصحيحة هي الأساس لبناء المجتمع الفاضل**؛ ذلك أن العقيدة هي الموجهة لأفكار الإنسان وسلوكه وسائر تصرفاته، ولا يمكن التخلي عنها في شأن من الشئون... فيجب أن تكون العقيدة الإسلامية هي الأساس لبناء المجتمع ونظامه، حتى يعمل الأفراد في ضوء عقيدتهم كأفراد وكأعضاء في المجتمع، كما يعمل المجتمع كجماعة منظمة في ضوء هذه العقيدة التي حملها أفراد(٨١).

ذلك أن الدين هو الذي يضع للإنسان القواعد الأخلاقية السليمة الصحيحة ويحدد السلوك المستقيم للأفراد، ويرسم له طريقاً موصلاً إلى غاية لا اعوجاج فيه، ويدفعهم إلى السير في هذا الطريق القويم (أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً)

ذلك أن العقيدة الإيمانية خير دعامة للأخلاق؛ لأن الإنسان كتلة هائلة من الغرائز لا تعرف الحدود، ومجموعة من الشهوات والمطامع والطموحات التي لا تعرف النهاية، فإذا ترك وشأنه لينال ما تدفعه إليه شهواته وغرائزه جر على نفسه وعلى مجتمعه الفساد والفناء، لتضارب المصالح والمطامع والطموحات، وعجز الإنسان عن الوصول إلى كل ما يريده إلا على حساب صحته وسلامته، وإنسانيته وقيمته، و... الخ (٨٢) .

فالوازع الإيماني أو الديني هو الضمير، وهو أساس مكارم الأخلاق، وإن وازع الضمير الذي يتحدث عنه علماء الأخلاق لا يغني عن العقيدة والدين، بل إن هذا الوازع لا وجود

له إلا عند المتدينين وفي قاموس حياة المؤمنين.

والسبب في ذلك كما يقول العلامة الجسر: «إن انقياد الإنسان لمكارم الأخلاق إنما يكون بالقانون أو الوازع من القرآن أو بوازع من المجتمع الإنساني لأن هذه المكارم تمثل في الأصل التوفيق بين غرائزنا وحاجات المجتمع القوي، فإن الإنسان بنجاته من سلطان القانون والمجتمع لم يبق إلا وازع الله تعالى واليوم الآخر»(٨٣)

٤- **الدين هو الذي ينشىء مجتمعاً متوازناً** فلا يبغي إنسان على آخر، **وإنما** يعرف كل فرد من أفراده ماله من حق فلم يزد عليه، وما عليه من واجب فلم يقصر فيه، ذلك أن الغلو في حب الدنيا هو رأس كل خطيئة والتنافس عليها أساس كل بلية، والمؤمن بالله هو الذي يستطيع أن يعلو على شهوات الدنيا وأن يطرح مغرياتها وراء ظهره، والإيمان وحده هو الذي يعطى المؤمن هدفاً أكبر من الدنيا ويشده إلى قيم أرفع وأبقى من شهواتها، والإيمان وحده هو الذي يعطى صاحبه القدرة على مقاومة إغراء الدنيا وفتنتها، والمجتمع أي مجتمع لا يرقى وينتظم ويسعد بسن القوانين ويقظة رجال السلطة وإنما يرقى وينتظم ويسعد بوجود القلوب الحية وتوافر الضمائر اليقظة بين أبنائه، والإيمان بلا ريب هو أعظم مدد للضمير والقلب، فعقيدة المؤمن في الله أولاً وعقيدته في الحساب والجزاء ثانياً تجعل ضميره وقلبه في حياة دائماً وفى صحو أبداً، وهذا الضمير الديني هو الركيزة الأولى للأخلاق وهو الأساس الأصلي لحياة اجتماعية فاضلة، وهناك الكثير من الأمثلة على ذلك فمثلاً تفرض القوانين التي وضعها البشر أنفسهم ضرائب على أهل المال نجدهم يتهربون من دفعها بينما الزكاة التي فرضها الإسلام فرضها الإيمان عبادة على المسلم يقدمها المسلم تقرباً إلى الله عن طيب نفس دون رقيب أو حسيب من البشر.

كما تجد أن المخالفين للقانون يحاولون الفرار أو التحايل في غفلة من القانون والرقباء عليه بينما يفرض قانون الإيمان على صاحبه أن يذهب إلى العدالة بنفسه عندما يستيقظ ضميره بعدما يقترف جرماً أو مخالفة، فتجده يعترف بالجريمة ويطلب العقوبة لنفسه تطهيراً من آثار الإثم، بالإضافة إلى أن الإيمان يردع المؤمن عن الركوض وراء الملذات كشرب الخمر والزنا دون الحاجة إلى رقيب أو حسيب(٨٤).

وهكذا نرى في وضوح تام أن الدين الحق فيه حياة الناس الحقيقية وسعادتهم الأبدية

وهذا ما يؤيده الواقع ويبرهن على صدقه فإن الأمم الآن مع تقدمها المادي الهائل الذي حققت فيه الكثير سواء كان ذلك على سطح الأرض وفى باطنها وحلقت في الفضاء ووصلت إلى معرفة الكثير عنه مما ينتج عنه الكثير من ألوان المعرفة رغم كل ذلك التقدم - فإن البشرية تعانى من القلق النفسي والتفكك الاجتماعي في مجال الأسرة والمجتمع.

ولا يمكن أن تتحقق السعادة الحق للناس إلا إذا توجوا ماديتهم بحسن الصلة بخالقهم سبحانه وتعالى وإلا كان التقدم المادي وحده سبباً في شقاء البشرية وجلباً لكل ما ينغص عليها حياتها ويحول بينها وبين جنى ثمار هذا التقدم.

الهوامش

(١) انظر لسان العرب لابن منظور ١٣/١٦٧/١٧١ ط بيروت.

(٢) سورة الصافات من الآية رقم ٥٣.

(٣) القاموس المحيط للفيروزآبادي ٢٢٧/٣.

(٤) الدين د. / عبد الله دراز ص٣٠، ٣١.

(٥) سورة آل عمران الآية ١٩.

(٦) مدخل لدراسة الأديان – محمد بن فتح الله بدران ص٩٧.

(٧) كشف مصطلحات العلوم والفنون ٢١٥/٢.

(٨) الدين أ. د. / محمد عبد الله دراز ٤٩ – ٥٠.

(٩) لسان العرب لابن منظور، مادة (ع ق د) ط دار المعارف.

(١٠) مختار الصحاح، أبو بكر الرازي ، مادة (ق ع د).

(١١) انظر دراسات في العقيدة الإسلامية أ. د. أحمد أبو السعادات ١٤٣-١٥٤ طبع مطبعة النهضة.

(١٢) المعجم الفلسفي، دكتور جميل صليبا ٩٣/٢ ط دار الكتاب اللبناني.

(١٣) المواقف في علم الكلام / عضد الدين الإيجي/٧.

(١٤) إحياء علوم الدين، للإمام الغزالي ١٢١/١.

(١٥) دائرة معارف القرن العشرين محمد فريد وجدي ٥١٨/٦ ط الثانية دار معارف القرن العشرين ١٩٢١.

(١٦) الإسلام عقيدة وشريعة للإمام محمود شلتوت ٩دار الشروق ط ١٤١٠-١٩٩٠م الطبعة السادسة عشر.

(١٧)- العقيدة في القرآن الكريم محمد المبارك /٩ - ط دار الفكر - بيروت .

(١٨) العقيدة الإنسانية للدكتور أحمد السايح ، مجلة الخفجي - العدد (١) - مجلد (٢٠) السنة ١٩٩٠م ص٤ .

(١٩) سورة الحجرات /١٥. (٤) البقرة/٦٢

(٢٠) سورة النساء /٦٥. (٥) النحل/ ٩٧

(٢١) سورة الأنفال / ٢-٤.

(٢٢) انظر : العقيدة السلفية أصولها وتأويلاتها والتيارات المعادية لها د. كمال عيسى ، دكتوراه بدار العلوم.